الفصل الرابع عشر

السنة المروعة

في 1 سبتمبر/أيلول 2004م، كان بوتين في سوتشي على البحر الأسود، في محاولة لم تكن ناجحة تمامًا لقضاء الأيام الأخيرة من عطلة أغسطس/آب التقليدية في البلاد في مناخ شبه استوائي؛ إذ إنه يقضي وقته في المجمع الرئاسي أكثر مما كان يقضيه في أي من المقار الرسمية الأخرى للكرملين خارج موسكو، وهنا عقد في كثير من الأحيان لقاءات مع القادة الأجانب، من بينها لقاء في اليوم السابق مع جاك شيراك من فرنسا، وجيرهارد شرودر من ألمانيا، (الترويكا) التي كانت تعارض علنًا الحرب الأمريكية على العراق. وبمراجعة لا تخلو من شماتة استذكروا أن إنذاراتهم المتنبئة بالكوارث تأكدت حال الإسقاط الأمريكي السريع لحكومة صدام حسين؛ إذ تحولت إلى تمرد قاتل.

أصبح بوتين قريبًا جدًّا من شرودر الذي تبنى يتيمًا روسيًّا هو وزوجته. كل زعيم كانت بينه وبين بوتين قضية مشتركة ضد سياسة المختال جورج بوش، تغاضوا عن انتقادهم لبلاده روسيا، ومن ذلك الحرب في الشيشان. أما عطلة بوتين المشؤومة فقد قُطعت في أغسطس/آب بسلسلة من المآسي؛ ففي 21 أغسطس/آب، أودت غارة جريئة من قبل المتمردين في الشيشان بخمسين شخصًا على الأقل، وجاء ذلك عقب غارة مماثلة في أنغوشيا المجاورة في يونيو/حزيران أدت إلى مقتل ما يقرب من مئة، وجاءت قبل أيام قليلة من عقد الشيشان انتخابات جديدة، امتدحها شيراك وشرودر، إذ رأوا فيها دليلًا على أن بوتين يسعى إلى حل سياسي للصراعات، التي هي الآن في عامها الخامس. ثم في ليلة 24 أغسطس/آب، وقعت

طائرتا ركاب في مطار دوموديدوفو في موسكو، ما يقرب من ساعة واحدة بين كل منهما على حدة. ففي وقت واحد تقريبًا، قرابة الساعة 11:00، كلتاهما انفجرتا في الجو، ودمرتا من قبل امرأتين انتحاريتين؛ واحدة منهما دفعت رشوة قدرها ألف روبل للحصول على مقعد في الطائرة بعد صعود الركاب عليها وإغلاق أبوابها، وكانت إحدى الطائرتين متجهة إلى فولغوغراد، والثانية لسوتشي، وقد قتل تسعة وثمانون شخصًا.

استشعر بوتين خطورة الهجمات، فعاد إلى موسكو، وأمر بتشكيل فريق عمل للتحقيق، ولكن بحلول مطلع الأسبوع عاد إلى سوتشي، ولم يصرح بشيء حتى ظهر مع شيراك وشرودر، وألقى باللوم في التفجيرات- أسوأ عمل إرهابي في سماء روسيا- على تنظيم القاعدة، الذي خلط الأخطاء بالحقائق على نحو صارخ. وبعد بضع ساعات فقط من حديث بوتين، فجرت امرأة نفسها عند مدخل محطة مترو Rizhskaya في موسكو، التي تبعد ثلاثة أميال فقط إلى الشمال من الكرملين، وأسفر الهجوم عن مقتل الانتحاري وتسعة آخرين، وجرح أكثر من خمسين. وكان من بين المسؤولين الذين هرعوا إلى مكان الحادث رئيس بلدية موسكو، يوري لوجكوف، وهو ما يؤكد حالة الذعر التي كانت تتكشف، ولا تختلف عن تلك التي اتبعت في تفجيرات الشقق في عام 1999م، وبعد أن أعلنت الشرطة في موسكو أن الانتحاري كان روزا ناغايفا، ثبت في وقت لاحق أن تلك معلومات كاذبة[1].

(أمانات) هي التي كانت يشتبه فيها بتدمير إحدى الطائرتين، في حين دمرت رفيقتها في السكن ساتسيتا دزهبيركهانوفا الطائرة الأخرى، كانت أمانات وشقيقتها وساتسيتا مشتركات في شقة قاتمة في حالة خربة ومدمرة في جروزني مع امرأة أخرى؛ هي مريم تابوروفا. كُنَّ يعشن على بعد خطوات من عكر، السوق المركزية النتنة في المدينة، حيث تباع الملابس القادمة بجولات مكوكية من أذربيجان[2]. في 22 أغسطس/آب، قبل يومين من الهجوم على الطائرات، غادر الأربع جميعًا جروزني، وأخذن حافلة إلى عاصمة أذربيجان، باكو، وتشاركن الآن في موجة جديدة من الإرهاب، وقد اقتفت السلطات أثرهن بسرعة معًا على الدرب، لكنها لم تعرف أين ذهبت تابوروفا ولا- كما اتضح- روزا ناغايفا[3].

كان بوتين قد وصل عام 2004م- على ما يبدو- إلى ذروة السلطة السياسية؛ فالانتخابات البرلمانية عززت سيطرته على السلطة التشريعية، وعلى الرغم من أن اعتقال خودوركوفسكي كان قد هز سوق الأسهم، فإنه لم تتراجع شعبيته، التي حلقت فوق 70 في المئة، وحتى المستثمرون القلقون بدؤوا يشعرون بالارتياح؛ لكون الهجوم على يوكوس يبدو معركة شخصية وسياسية، وليس نتيجة حملة لإعادة تأميم الصناعة؛ و«الناس ستنسى خلال ستة أشهر أن خودوركوفسكي لا يزال يجلس في السجن»، كما أعلن ويليام برودر، مدير رأسمال الأرميتاج، أحد صناديق الأموال التي كان لها فضل إعلاء شأن بوتين[4].

آثار تحسن الاقتصاد تتزايد يومًا بعد يوم في المتاجر والمطاعم والمباني السكنية الجديدة، خصوصًا في موسكو، وغيرها من المدن، إذ وصلت أسعار النفط إلى أكثر من ثلاثة أضعاف منذ بداية الأزمة المالية لعام 1998م، وفرض بوتين نظامًا ضريبيًّا جديدًا على شركات النفط مبنيًّا- ويا للسخرية- على المقترحات التي صاغتها يوكوس، فصبت الأموال في خزائن الدولة، وكانت حصة أرباح النفط التي تلقتها الحكومة قد تضاعفت تقريبًا، والعائدات قد ارتفعت من أقل من 6 مليارات دولار عندما أصبح بوتين رئيسًا للوزراء، إلى أكثر من 80 مليار دولار[5]، وبدأ الروس يتحدثون الآن عن أن روسيا ستصبح أكبر منتج للنفط في العالم، متجاوزة بذلك المملكة العربية السعودية.

لم يكن الازدهار من نجاح بوتين وحده، ومنتقدوه الذين سخروا منه وعدوه محظوظًا، في الوقت نفسه أيضًا يعرفونه زعيمًا بلا منازع للبلاد، جنى المنافع السياسية. وفي مطلع يناير/ كانون الثاني ضغط الكرملين في قضيته ضد شركة يوكوس، معلنًا أن على الشركة استحقاقات بـ 3.4 مليارات دولار؛ ضرائب متأخرة عن عام 2000م وحده، وأعرب رئيس الوزراء الروسي، ميخائيل كاسيانوف، عن الاحتجاج، وكان الاحتجاجَ الوحيد. وفي مقابلة أجرتها معه صحيفة فيدوموستي، قال إن خودوركوفسكي وشركاءه لم يتهربوا من الضرائب بالخداع، ولكنهم ببساطة استخدموا الثغرات التي كانت آنذاك متاحة للجميع، ولكنها الآن بأثر رجعي أصبحت

غير قانونية[6]. رأى بوتين في ذلك تحديًا من رئيس وزرائه، مهما كانت تصريحاته معتدلة وتبدو خفيفة، وقد كان كاسيانوف حريصًا دائمًا على عدم التحدث مباشرة ضد رئيسه، ولكن في يوم السبت التالي طلب بوتين، في الاجتماع الدوري لمجلس الأمن، من الأعضاء البقاء بعد الانتهاء من جدول الأعمال، وكان المجلس يضم أهم المسؤولين في البلاد، ومن بينهم وزراء الدفاع والشؤون الخارجية، وبطبيعة الحال كاسيانوف رئيس الوزراء. أوعز بوتين للنائب العام فلاديمير أوستينوف بقراءة جرائم خودوركوفسكي جميعها بصوت عال، معتقدًا أن النطق بـ(جرائم) خودوركوفسكي سوف يبدد أي شكوك، ويدحض توجه كاسيانوف الخطير في الاستجواب، قبل أن يتبنى هذا التوجه أي شخص آخر نيابة عنه.

قرأ أوستينوف الاتهامات قراءة رتيبة، صفحة بعد صفحة، لأكثر من ساعة، و«أعضاء مجلس الأمن لم يفهموا بالضبط سبب هذا الفعل، وجلسوا هناك بوجوه متحجرة، لا تتحرك»، كما يتذكر كاسيانوف، الذي ما كان بوسعه إلا أن يبتسم من «كل السخافات والاختراعات الواضحة»، في حين كان بوتين جالسًا على رأس الطاولة البيضاوية الطويلة، يتفحص وجوه مساعديه، ويسجل ملاحظاته على ردود أفعالهم: الفارغة من أي دلالة أو رد فعل تجاه ما يقرؤه المدعي العام من قبل معظمهم، ومن ابتسامة كاسيانوف. وعندما انتهى أوستينوف من القراءة، لم يسأل أحد منهم سؤالًا أو يقل كلمة استجابة، بل «ساروا جميعهم خارجين بصمت»[7]. كانت الهيمنة السياسية لبوتين تبدو وكأن تحديه يبدو نقطة صغيرة في بحر.

في الانتخابات الرئاسية أيضًا، التي عقدت في مارس/آذار، لم يواجه بوتين أي معارضة ذات قيمة؛ فقد انسحب قبل أن تبدأ الحملة الرسمية جبابرة السياسيين لعهد يلتسين؛ غينادي زغانوف وفلاديمير جيرينوفسكي، الرجال الذين كانوا يبدون ذات مرة أنهم سيتولون حكم كل روسيا، وبدلًا من ذلك عينوا موالين للحزب لإجراء حملات رمزية، وفي حالة جيرينوفسكي، حمل حارسه الشخصي، وهو ملاكم سابق يدعى أوليغ ماليشكين، لافتةَ الحزب.

رفض جريجوري يافلينسكي بمرارة شعوره بهزيمة يابلوكو في ديسمبر/كانون الأول، وصدرت توسلات من الكرملين نفسه لشن حملة ثالثة لرئاسة الجمهورية، لخلق ما يشبه الخيار الديموقراطي؛ فقد حاول بوريس نيمتسوف، أحد المصلحين الآخرين الذين خدموا في ولاية يلتسين، إقناع كاسيانوف- وكانا في إجازتهما معًا في فصل الشتاء- أن يكون مرشحًا يمثل الليبراليين الاقتصاديين في البلاد، لكن كاسيانوف لم يجرؤ على تحدي رئيسه. في الأسابيع التي سبقت الحملة، تبيَّن بالاستطلاع أن 55 في المئة من المشاركين يعتقدون أنه سيكون من الأفضل إلغاء الانتخابات وتوفير المال الذي ستكلفه الانتخابات[8]. إعادة انتخاب بوتين تأكيد للمسار الذي كان قد اختاره لروسيا، والذي بدا على وشك الانهيار، ولكن بطريقة لا هو ولا مساعدوه كانوا يتوقعونها. كانت (الديموقراطية الموجهة) التي نسقها سوركوف قد نجحت جيدًا بحيث كانت تهدد بتقويض صورة بوتين نفسه باعتباره ديموقراطيًّا حوَّل روسيا بموافقة الشعب. واحدة من الأفكار الأولى للتشريع في مجلس الدوما الجديد دعت إلى تعديل الدستور لتمديد ولاية الرئاسة لسبع سنوات، والسماح لبوتين بالترشح لولايتين جديدتين، يمكن أن تبقياه في منصبه حتى عام 2018، لكنه اعترض، مصرًّا على أنه يجب أن تكون هناك تغييرات دستورية. كان لا يزال يسعى إلى رخصة تسبغ الديموقراطية، ومع أنه كان في سباق واجه فيه معارضة الكرملين، فلا يوجد منافسة حقيقية؛ فقد ترك الكرملين ليجند مرشحي المعارضة له، ومن ضمنهم يافلينسكي والنائب البرلماني السابق من بطرسبورغ، سيرجي ميرونوف، الذي قبل ترشيح حزب صغير له بتوجيه نداء مؤثر للتصويت للرئيس الحالي، قائلًا: «عندما يذهب الزعيم الثقة إلى المعركة- ويعني به بوتين- فلا يجب أن يُترك وحده»[9]. أما الليبراليون فلم يتمكنوا من الاتفاق على مرشح واحد اليوم، ولكنهم تمكنوا من توحيد أنفسهم ككتلة واحدة قبل الانتخابات البرلمانية. وفي النهاية كانت إيرينا خاكامادا، الروسية من أصل ياباني، وواحدة من أكثر النساء البارزات في الساحة السياسية، هي الوحيدة التي انتهت إلى خوض التحدي، وقد رفض حزبها (اتحاد قوى اليمين) تأييدها. ومن المنفى في لندن موَّل بوريس بيريزوفسكي مرشحًا آخر؛ هو إيفان رايبكن، المتحدث باسم

الدوما السابق وحليف يلتسين، وقد سقط في نهاية المطاف، ولكن ليس قبل أن ينهي الفصل الدرامي الذي رافق حملته التي يختفي فيها أربعة أيام في شهر فبراير/شباط، حيث أعلنت السلطات تحقيقًا في اغتيال محتمل له، وعندما عاد إلى الظهور تعهد بمواصلة حملته، ثم سرعان ما هرب إلى لندن، حيث التقى مساعدي بيريزوفسكي، ومنهم ألكسندر ليتفينينكو، ضابط جهاز الأمن الفيدرالي السابق الذي كان اتهم الوكالة علانية.

وكان ليتفينينكو قد هرب من روسيا في أكتوبر/تشرين الأول 2000م، واستقر في لندن برعاية مالية من بيريزوفسكي. بعد لقائهما ادعى رايبكن أنه قد اختطف وخُدِّرَ في كييف، حيث ذهب بدعوة للقاء رئيس الانفصاليين الشيشان أصلان مسخادوف، الرئيس السابق الذي بات الآن واحدًا من أكثر المجرمين المطلوبين في روسيا، ولكن اللامعقولية في مخاطرة مسخادوف بالسفر إلى أوكرانيا، التي كانت جزءًا لا يتجزأ من نشاط الأجهزة الأمنية الروسية، تشي بأن الواقعة لم تحدث لرايبكن. رايبكن كان قد سقط فاقدًا للوعي أربعة أيام، بعد أن تناول الشطائر والشاي في شقة في كييف، وعندما أوشك على الاستفاقة، أظهر له اثنان من الرجال الروس المسلحين شريطًا مصورًا، وقد رفض أن يصف بالتفصيل ما حدث سوى قوله إن من فعلوا ذلك هم من (المنحرفين)، وكان القصد من ذلك إذلاله كي يلوذ بالصمت[10].

ادعى ليتفينينكو أن الدواء الذي ابتلعه رايبكن كان SP-117، وهو مصل الحقيقة الذي تستخدمه أجهزة الاستخبارات الخارجية الروسية، ووصفه قائلًا: «ما إن تبتلع الـ SP-117، حتى يصبح بإمكانهم أن يفعلوا بك ما يريدون؛ فيقتادونك هنا وهناك، ويضعونك في السرير مع البنات أو الأولاد، ويسجلون لك الشريط الذي يشاؤون، وهلم جرًّا. ثم تحصل على حبة واحدة من الترياق فتعود طبيعيًّا مرة أخرى فلا تتذكر ما حدث»[11].

لا أحد أخذ الاتهامات الموجهة لرايبكن على محمل الجد، ولا حتى زوجته، التي قالت إنها شعرت «بالأسى لروسيا إذا كان أناس مثل هؤلاء يريدون أن يحكموها»[12]، لكن مسيرته

السياسية لم تتعافَ أبدًا. بيريزوفسكي، على الرغم من أنه لم يكِلَّ بتاتًا في حملته لتشويه سمعة بوتين، ندد به بانتظام، مع زيادة الشدة وتناقص في الحقيقة، ولن تكون المرة الأخيرة له وليتفينينكو ليصبحا مشتركين في الدراما المثيرة التي تنطوي على الجواسيس والسم.

لم يتجاهل بوتين منافسيه فقط؛ بل تجاهل ظاهريًّا حملته الخاصة، كما كان قد فعل قبل أربع سنوات، ولم يكن عليه هو أن يخوض حملة علنًا؛ بسبب سيطرة الكرملين على التلفاز، التي تعني أن مهامه ستكون مغطاة بصفته الرئيس بإخلاص، ودون تمحيص، وأكثر بروزًا حتى في نشرات الأخبار المسائية، وبالمقابل فإن منافسي بوتين لا يرد ذكرهم على الإطلاق، إلا مع استصغارهم أو التنديد بهم.

بعد أن قُرِّر عقد أول مناظرة بين المرشحين للرئاسة في 12 فبراير/شباط- في ساعات الصباح المبكرة لضمان أقل عدد ممكن من المشاهدين- رفض بوتين الحضور، وبدلًا من ذلك فإن الدقائق التسع والعشرين المخصصة له في ذلك اليوم افتتح بها رسميًّا حملته الانتخابية بخطاب له، ومع ذلك بُثَّت مرارًا بعد الظهر وفي المساء. لم ينشئ أي إعلانات للحملة، ولم يعقد أي تجمعات، ولم يقدم مقترحات واضحة لإنجازها في الولاية الثانية سوى أن يظل تجسيدًا حيًّا للاستقرار في روسيا. والمفارقة أن السنوات الأربع من رئاسة بوتين، والاستقرار في روسيا، لا تزال تبدو غير مستقرة، كارثة غير بعيدة غير بعيدة عن اضطرابات التسعينيات.

عشية السباق، انفجرت قنبلة في باب يلينا تريغوبوفا، الصحفية التي كان بوتين قد أرسلها إلى السوشي حين كان مديرًا لجهاز الأمن الفيدرالي، وكانت في عام 2003م قد نشرت كتابًا عن تجربتها في تجمع الصحافة المقيدة على نحو متزايد في الكرملين، **حكايات من حفَّار الكرملين**، وكان من أكثر الكتب مبيعًا، واصفًا بالتفصيل الممل جهود الكرملين لإدارة التقارير وتوجيهها، ومن ضمنها حادث توبيخ بوتين للصبي الذي كان قد ضربته سيارة، إذ قال له: «من الآن فصاعدًا عليك ألا تنتهك قواعد السير والمرور». افترضت تريغوبوفا

أن الهجوم مرتبط بطريقة ما بالانتخابات المقبلة، ومع أنها لم تُصَب بجراح، فإنها كانت مصدومة، حتى إنها هربت من روسيا، قالت: «لقد أصبح من غير المريح العيش في هذه المدينة»[13].

وبعد أربعة أيام، فجر انتحاري نفسه في قطار المترو في وسط موسكو، مما أسفر عن مقتل واحد وأربعين شخصًا، وإصابة أكثر من مئتين بجراح، وأحد المتهمين بتدبير الهجوم هو نفسه المتورط في وقت لاحق بتفجير مترو رزهسكايا بعد ستة أشهر[14]. في 14 فبراير/ شباط، بعد يومين من البداية الرسمية للحملة الانتخابية، انهار سقف حديقة مائية داخلية شعبية جديدة في جنوب موسكو، في متنزَّه الترانسفال بارك الذي يرمز إلى وسائل الراحة التي نجمت عن الازدهار الاقتصادي الذي حققه بوتين للطبقة الاستهلاكية الناشئة في البلاد: إذ كان الجنة الاستوائية في الأماكن المغلقة في الشمال البارد. قُتل ثمانية وعشرون شخصًا من جراء الكارثة، وقد ادعى مصممو البناء أنها ناجمة عن هجوم إرهابي، ولكن ذلك كان في الواقع ناجمًا عن عيب في البناء.

من المستحيل أن نلوم بوتين مباشرة على أي واحد من تلك الأحداث، ولكنها مجتمعةً- بكل تأكيد- معيار لحكمه؛ بصفته صاحب النجاحات الاقتصادية التي رفعت أسهمه. أنتج إيفان رايبكن إعلانًا على الطريقة الأمريكية لكوارث الهجوم على مترو الأنفاق والحديقة المائية، جنبًا إلى جنب مع الحالة المزرية للتعليم والرعاية الصحية، ولكن شبكات التلفاز في الولاية رفضت ببساطة نقله[15]، ومع ذلك فإن الفريق السياسي لسوركوف لم يترك شيئًا للمصادفة، فأصدر الكرملين أوامر إلى المناطق النائية بتحديد مجاميع التصويت لبوتين وإقبال الناخبين، وهددت السلطات في خاباروفسك في الشرق الأقصى بإجلاء المرضى من المستشفيات إذا لم يستطيعوا إثبات أن لديهم إذنًا بالاقتراع الغيابي للإدلاء بأصواتهم. وبعث مسؤول السكن في سانت بطرسبورغ بريدًا إلكترونيًّا إلى مديري المباني لضمان نسبة إقبال 70 في المئة[16].

تنفيذًا لرغبات الكرملين، فرض البيروقراطيون المحليون عقبات للإبقاء على منافسي بوتين من دون تحشيد حملات على الإطلاق، وأوقفت الشرطة مظاهرة واحدة في يكاترينبورغ بحجة فرضية تهديد بوجود قنبلة، وانقطع التيار الكهربائي في نيجني نوفغورود بعد ذلك بيومين.

لم تلق الحملة أي اهتمام انتخابي، وكان ذلك مصدرًا للقلق الأكبر للكرملين الآن؛ إذ إن إقبال الناخبين إذا ما كان تحت عتبة 50 في المئة اللازمة لجعل الانتخابات قانونية، فإن ذلك مدعاة إلى فرض انتخابات جديدة، وهذا من شأنه أن يسبب الحرج الكبير، ولكن بدأ أقرب مستشاري بوتين أيضًا يرى بذور مؤامرة لحرمانه السلطة. فبموجب القانون إذا كان مطلوبًا إجراء انتخابات جديدة، فعلى رئيس الوزراء أن يتدخل ليكون بمنزلة القائم بأعمال الرئيس في هذه الأثناء، وهذا هو ميخائيل كاسيانوف، الذي كان قد انتقد محاكمة خودوركوفسكي، الذي كان بوتين على قناعة أنه يحاول شراء السيطرة على الدولة، وأمضى إجازته مع بوريس نيمتسوف، الذي أثار احتمالَ ترشحه للرئاسة، وبوتين يجب بالتأكيد أن يكتشف ذلك.

كانت فرص كاسيانوف في المناورة على السلطة متناهية الصغر وبعيدة المنال، لكن بوتين ومساعديه صدقوا ذلك، ولن يتسامحوا مع أي خطر[17]، ومن ثم ففي حفل موسيقي في الكرملين، يوم 23 فبراير/شباط، لمس كاسيانوف نفسُه تعاملًا باردًا من بوتين، ولاحظه خلال الاستراحة يهمس في الزاوية مع رئيس جهاز الأمن الفيدرالي نيكولاي باتروشيف، وإضافة إلى ذلك فقد ظل يتجنبه[18].

في اليوم التالي، استدعى بوتين كاسيانوف إلى مكتبه في الكرملين وأقاله، ولم يكتف بأن لم يفسر السبب للجمهور، بل إنه رفض أن يبلغ كاسيانوف، الذي فاجأته الأخبار حتى إنه لم يفهم في البداية أن بوتين كان يعني تنفيذ الأمر على الفور، وليس بعد إعادة انتخابه في مارس/آذار كما كان متوقعًا أن يعين رئيس وزراء جديدًا بعد الانتخابات الرئاسية[19]. كانت تلك أقوى صدمة لحكومة بوتين التي كانت استمراريتها مقياسًا للاستقرار السياسي، ومثل

يلتسين من قبله استخدم المفاجأة لتعظيم الأثر والحفاظ على تركيز اهتمام وسائل الإعلام به، ومن ثم فإنه حتى كبار المسؤولين الآخرين لم يكونوا يعلمون بخطوة بوتين القادمة. قال بوتين إن الناخبين فقط يستحقون أن يعرفوا تركيبة الحكومة الجديدة قبل الانتخابات، والتي أبرزت فقط كيف يمكنه التنبؤ بما ستكون عليه النتيجة.

لم يعلن بوتين على الفور استبدال كاسيانوف على الرغم من ذلك، وتسبب ذلك التأخير بتفشي المضاربة؛ ليس حول الانتخابات في غضون الأسابيع الثلاثة، ولكن حول رجل عام 2008 الذي من شأنه أن يُنتخَب خليفة لبوتين بعد أن انتهت رئاسته الثانية. إذ يفترض معظم السياسيين والمحللين أن يكون كاسيانوف خيار بوتين، لكونه وريثه السياسي، كما أصبح بوتين في نهاية المطاف خليفة يلتسين، لكنهم لم يحسنوا فهم نيات بوتين؛ فهو لا يريد تسمية ولي العهد الذي قد يظهر شخصية سياسية ندًّا له، فأمر كهذا من شأنه أن يسمح بفكرة روسيا من دون بوتين، وكان من المبكر جدًّا التفكير في ذلك.

انتظر بوتين أسبوعًا، فاسحًا المجال للغموض والتشويق أن يتعمقا، وقد تركزت التكهنات على المسؤولين الكبار في كرملين بوتين: الليبراليين والحرس القديم، الذين يقودهم على التوالي ألكسي كودرين وسيرجي إيفانوف، اللذين كان لديهما تطلعاتهما الخاصة للصعود إلى السلطة بالتمسك بذيول معطف بوتين، لكنه خلافًا لذلك أعلن مرشحًا لم يكن أحد يتوقعه، ولا حتى أولئك الداخلون في الفصائل المتناحرة. وكتبت الصحفية آنا بوليتكوفسكايا: «النخبة السياسية كانت مستفَزة؛ لعبةُ تخمينِ مَن سيعينه بوتين استولت على القنوات التلفازية، وأعطت النقاد السياسيين شيئًا لمناقشته، وحصلت الصحافة على شيء يمكن أن تكتب عنه في الحملة الانتخابية»[20]. وقبل أقل من أسبوعين من يوم الانتخابات، اجتمع بوتين والقادة البرلمانيين لخلق مظهر من التشاور، كما هو مطلوب اسميًّا من قبل الدستور، وأعلن بوتين أن رئيس الوزراء الجديد سيكون ميخائيل فرادكوف، و«خيَّم صمت»، وقد علق على ذلك أحد المشاركين في الاجتماع لصحيفة فيدوموستي: «لأن بعضنا لا يتذكر من كان فرادكوف»[21].

فرادكوف، أصلع الرأس، بيروقراطي مرتخٍ، كان منذ مدة طويلة في المهنة غامضًا، وقد بدأ في الاتحاد السوفييتي في وزارة الشؤون الاقتصادية الخارجية، وليس لديه راعٍ، ولا دائرة سياسية، أو أي مقترحات في السياسة يمكن أن يستشفها أي شخص. يبدو كما لو أنه كان لطيفًا اختياره لرئاسة الوزراء، كما كان بوتين في عام 1999م. حتى فرادكوف بدا مذهولًا لترشيحه، وكان بوتين أول من دعاه خلال عطلة نهاية الأسبوع، وكان لا يزال في بروكسل، حيث شغل منصب مبعوث روسيا لدى الاتحاد الأوروبي، عندما أعلن بوتين منصبه الجديد.

عند وصوله عاد إلى موسكو في اليوم التالي، اعترف أنه لا يمتلك المؤهلات التي يتطلبها المنصب وأنه لم يكن لديه طموح إلى هذا المنصب، قد يكون هذا صحيحًا لكن إذا كان بوتين يعني حقًّا تعيينه لتوضيح مسار الحكومة القادمة، فإن هذا لا يعني شيئًا إلا أن مجلس الوزراء تحت قيادة فرادكوف سيكون مطواعًا كما أصبح الدوما والمجلس الاتحادي.

لم يكن لفرادكوف أي طموح شخصي، ولكنه ينتمي إلى فريق من ضباط المخابرات السابقين المجتمعين حول بوتين في موسكو خلال رئاسته. المؤهلات التعليمية لفرادكوف ؛ ما تلقاه من تعليم في معهد موسكو لتصميم الآلات والأدوات، والفجوة الغامضة في سيرته الذاتية، وتحدثه الإنجليزية والإسبانية، والمهمة التي كلف بها في سبعينيات القرن الماضي بوصفه مستشارًا اقتصاديًّا في سفارة الاتحاد السوفييتي في الهند تشير جميعها إلى ارتباطه الوثيق بالكي جي بي، مع وجود فجوة غامضة في سيرته الذاتية، لكنه يجيد بطلاقة اللغتين الإنكليزية والإسبانية، وقد كان في السبعينيات مستشارًا اقتصاديًّا في سفارة الاتحاد السوفييتي في الهند، وهو ما يشير بقوة إلى علاقاته بالـ(كي جي بي)، ومع أنه لم يعترف أو ينكر افتراض أنه يعمل بسرية، فهذا شأن كثير من مسؤولي التجارة السوفييت[22].

قال بوتين في إعلانه إن فرادكوف كان مسؤولًا إداريًّا جيدًا، ومن المسؤولين الجيدين الذين لديهم خبرة في الأجهزة الأمنية. طوال ولايته الأولى كان بوتين يفضل رجال الأمن في تعييناته، وحسب بعض التقديرات فإن ما يصل إلى 70 في المئة من المناصب الحكومية

العليا هم من الضباط السابقين في الجيش والشرطة، أو المخابرات، وكثيرون منهم لديهم الخلفية نفسها في الـ(كي جي بي)، وفرادكوف مناسب لهذا النمط. ما أدركه قليلون هو أن بوتين كان يعرف فرادكوف، هذا المنضبط اللطيف غير مشغول البال، من سنوات، وكان قد شغل منصب ممثل بطرسبورغ في وزارة التجارة الخارجية في وقت مبكر من التسعينيات ومع رئيسه، بيوتر آفون، الذي أصبح الآن واحدًا من أغنى المصرفيين في روسيا، وهو الذي كان قد وافق على عقود المقايضة التي وقعها بوتين في المخطط الفاضح لتزويد المدينة بالغذاء في فصل الشتاء الأول من روسيا الجديدة[23]. كاسيانوف، ومن قبله فولوشين، مثَّلا إرثًا شرعيًّا من عهد يلتسين. المسؤولون منهم مع طموحاتهم، ومصالحهم، ودوائرهم الانتخابية، كانوا قد اختفوا الآن، ولا تزال هناك خصومات وانقسامات داخل الكرملين، لكن مع تعيين فرادكوف عزز بوتين تفوقه السياسي؛ بتعيين شبكة كاملة من مرؤوسيه من شأنها أن تبقى فوق كل شيء موالية له. بعد تعيينه بخمسة أيام فقط اعتمد الدوما ترشيح فرادكوف بعد نقاشات روتينية شملت فقط تسعة أسئلة، وعرض فرادكوف فقط الخطوط الأكثر إبهامًا من سياساته، فقد عيِّن لأداء ما يمليه بوتين، والجميع يفهم ذلك، وكانت نتيجة التصويت 352 مقابل 58، وامتناع 24 عن التصويت.

جاءت إعادة انتخاب بوتين وفق السيناريو الذي أعده وكتبه الفريق السياسي لسوركوف؛ فقد حصل على أكثر من 71 في المئة من الأصوات، وجاء من بعده المرشح الشيوعي نيكولاي خاريتونوف، المعروف على نطاق ضيق، في المرتبة الثانية بـ13 في المئة من الأصوات، وكانت هناك أدلة وافرة عن حشو أوراق الاقتراع، والفرز المشبوه للأصوات، لكن منع الكرملين التحقيق في هذه الاتهامات. وكانت نسبة الإقبال ومجموع المصوتين لبوتين، في عدة مناطق، لا تُصَدق، ففي الشيشان التي تعصف بها الحرب صوت 92 في المئة لبوتين، وقد سخر خاريتونوف من ذلك قائلًا: «أعتقد أن مسخادوف وباساييف هما فقط اللذين لم يذهبا إلى صناديق الاقتراع»، وشكا بمرارة من المخالفات الانتخابية، التي كان من ضمنها حالات احتُسبت فيها أصوات مؤيدة له لبوتين[24]. كذلك ففي جميع أنحاء شمال القفقاز،

المناطق التي غزتها روسيا الإمبريالية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، سُلِّمت نتائج مماثلة لموسكو مثل تحية إلى القيصر. وفي داغستان صوت 94 في المئة لبوتين، وفي قبردينو - بلغاريا 96؛ وفي إنغوشيا 98، وفي بعض المناطق من جميع أنحاء البلاد، تجاوزت نسبة المشاركة والتصويت لبوتين 99.9 في المئة، ولكن لا أحد في الكرملين- أو غيره- بدا محرجًا من هذا. وكانت الدراما الليلية هي الوحيدة التي ليست معنية بالانتخابات.

دقائق فقط بعد إغلاق مراكز الاقتراع في موسكو، اشتعلت النيران في مانيزه؛ المَعلَم الكلاسيكي الجديد عبر حدائق ألكسندر من الكرملين، وسرعان ما انتشرت من خلال العوارض الخشبية في السقف، لتستهلك المبنى بأكمله سريعًا. أولى الصور التي بثها التلفاز أظهرت كما لو أن الكرملين نفسه الذي كان يحترق، «وليس شيئًا من شأن السلطات أن تريه للروس في يوم انتصار فلاديمير بوتين»، كما كتبت إحدى الصحف[25]، وكان بوتين يشاهد ذلك من على سطح مجلس الشيوخ ومبنى مكتب الرئاسة في الكرملين، وكان عليه أن يؤجل خطاب النصر، وعلى الرغم من ذلك فإن قنوات تلفزة الدولة لا يمكنها تجنب إظهار الحريق في الخلفية خلال تقارير حية من وسط المدينة، وعندما انهار سقف المبنى في كومة منفجرة، وانبعث الجمر في السماء وكأنه ألعاب نارية غير مرغوب في عرضها، انفجر الحشد في الشارع، لسبب غير مفهوم، بالهتافات. توفي اثنان من رجال الإطفاء عندما سقطت العوارض الخشبية المحترقة عليهما، وأعلن مسؤولون أن السبب في ذلك خلل في الأسلاك، أو ربما شرارة لحام، ولكن لأنه لا أحد كان يعمل هناك ليلة الأحد، فإن الاشتباه في حريق متعمد كان مطروحًا ثم تبدد تمامًا.

في ثقافة عميقة بالخرافات، يبدو أن إعادة انتخاب بوتين كانت فألًا سيئًا، قال بوتين: «أعدكم بالدفاع عن الإنجازات الديموقراطية لشعبنا دون قيد أو شرط، وستكون مضمونة»، في ظهور قصير له في مقر حملته الانتخابية ليلة الانتخابات، مرتديًا سترة الياقة المدورة السوداء. لم يفز أي حزب ولم يكن ثمة أي احتفال، ولا أحد يبدو سعيدًا أو متحمسًا لذلك.

في صباح اليوم التالي بعد إعادة انتخابه، استقبل بوتين المكالمات الهاتفية المهنئة من جورج بوش، وطوني بلير، وجاك شيراك، وجيرهارد شرودر، وجونيشيرو كويزومي، على الرغم من أن المراقبين الدوليين من منظمة الأمن والتعاون في أوروبا اجتمعوا ليعلنوا، وفق طقوس مؤتمر ما بعد الانتخابات، أن الانتخابات «عكست عدم وجود ثقافة الديموقراطية، والمساءلة، والمسؤولية».

إعادة انتخاب بوتين ثبطت من معنويات الديموقراطيين في البلاد، وفرضَ انهيار الأحزاب الليبرالية الذي بدأ مع الانتخابات البرلمانية، ضرورة البحث فيما حدث من أخطاء. وقد وصف واحد من الليبراليين القليلين المستقلين المنتخبين لمجلس الدوما في عام 2003م، فلاديمير ريجكوف، الذي يمثل بارناول في سيبيريا، وصف ما حدث بأنه «كارثة الليبرالية»، وأن الديموقراطيين في البلاد- من وجهة نظره- تشوهوا من الآثار السلبية لانهيار الاتحاد السوفييتي؛ بالانتقال إلى الفوضى والجرائم الجنائية لأجل الوصول إلى الرأسمالية الزائفة التي خلفت ملايين الفقراء والتائقين إلى استقرار الدولة السوفييتية، إن لم يكن الركود الإيديولوجي والاقتصادي الخانق. وبوتين، الذي كان يعمل لدى واحد من أوائل الديموقراطيين في البلاد، وكان وريث الرجل الذي قاد روسيا في التسعينيات، ظهر- بطريقة ما- أن له كل الفضل في الانتعاش الاقتصادي والحريات الشخصية التي لا تزال باقية.

وذهب ريجكوف إلى لوم معظم أنصار الديموقراطية من أحزاب ليبرالية؛ يابلوكو واتحاد قوى اليمين، التي صوتت لا لقادة أحزابهم، بل لبوتين، الذي اتهمه قادة الأحزاب بتعرية الانتخابات- والنظام في حد ذاته- من أي طابع ديموقراطي حقيقي؛ «في نظر غالبية الروس، الرجل الديموقراطي رقم واحد في البلاد ليس سوى الرئيس فلاديمير بوتين نفسه»[26].

الاحتجاج الأكثر إثارة للدهشة جاء من مصدر غير متوقع؛ من الزنزانة الضيقة لميخائيل خودوركوفسكي، وكان قد مضى عليه في السجن خمسة أشهر، يلتقي محاميه ويمعن في مئات

الصفحات من الوثائق التي كانت النيابة العامة قد جمعتها لمحاكمته القادمة، وقد أدلى بهذه التصريحات الوجيزة فقط في الجلسات المتقطعة في المحكمة، لكنه أمضى الساعات في زنزانته يفكر في تطور السياسة والأعمال في روسيا. وكان قد استثمر ثروته الشخصية في تمويل السياسيين الذين توجهوا الآن إلى الانتخابات البرلمانية والرئاسية من قبل رجل كان قد حاول- بجرأة، وقد فهم الآن- التحدي. من الملاحظات المجمَّعة جنبًا إلى جنب مع محاميه، نشر مقالًا مطولًا في صحيفة فيدوموستي بعد إعادة انتخاب بوتين، وكان جزء منه بمنزلة وصفة طبية وجزء آخر بمنزلة اعتراف، وتضمن تحليلًا مريرًا لخطايا الليبراليين في روسيا، ومن بينهم هو نفسه[27].

واصل رجال الأعمال الكبار جني الأرباح من وراء الأعمال الخيرية الاجتماعية؛ التي كانت جحودًا بالسياسة عن طريق مجانبة السلطة السياسية والكذب حول هذا الموضوع على الناس؛ كان الأبطال الليبراليون للديموقراطية يركزون على 10 في المئة من السكان ويهملون أولئك الذين يرزحون في المعاناة. «نحن اليوم نشهد رأسملة الليبراليين، والرأسملة، في الواقع، ليست فقط خطأ الليبراليين، ولكنها أيضًا مشكلتهم. ومن خوفهم من مواجهة تاريخ ألف عام، ممزوج بتوقٍ إلى وسائل الراحة المنزلية التي طوروها في التسعينيات، ومن الهوان المتأصل بهم على المستوى الجيني، فقد كانوا مستعدين لتجاهل الدستور من أجل مساعدة أخرى من سمك الحفش (سمك ضخم يستخرج منه الكافيار)». ويعتذر عن دوره الخاص بالرعاية المالية لإعادة انتخاب يلتسين في عام 1996م، و«الأثر الوحشي الذي شكلته، وهو ما جعل الشعب الروسي يختاروه من كل قلوبهم».

رسالة خودوركوفسكي بدت وكأنها عريضة ندم وطلب استدرار رأفة أو رحمة، وكانت أيضًا تحليلًا حادًّا في السياسة الروسية والمجتمع. وقد كتب عن بوتين قائلًا: «هو على الأرجح ليس ليبراليًّا وليس ديموقراطيًّا، لكنه لا يزال أكثر ليبرالية وديموقراطية من 70 في المئة من سكان بلدنا». كان الرجلُ الذي قضى بسجنه هو الرجل الذي يحافظ على البلاد حتى طوَّر المجتمع مزيدًا من الشعور بالوحدة، وبالجماعة المحلية، والمساواة. خصَّ

خودوركوفسكي مرشحًا معارضًا واحدًا، هي إيرينا خاكامادا، لاقتراحها صفحة كاملة من الإعلان في صحيفة، بقوله إن بوتين كان مسؤولًا عن حصار نورد-أوست (Nord - Ost). «يجب علينا التخلي عن المحاولات غير المجدية لوضع شرعية الرئيس موضع تساؤل، بغض النظر عن كوننا نحب فلاديمير بوتين أو لا، وحان الوقت لندرك أن رئيس الدولة ليس مجرد شخص عادي؛ الرئيس هو مؤسسة ضمان الاستقرار في البلاد وسلامتها، ونعوذ بالله أن نعيش لنرى اليوم الذي تنهار به هذه المؤسسة؛ روسيا لن تبقى على قيد الحياة في فبراير/ شباط 1917م آخر. تاريخ الأمة يخبرنا أن الحكومة السيئة أفضل من عدم وجود أي حكومة على الإطلاق».

الأول من سبتمبر/أيلول هو- بحكم التقاليد- اليوم الأول من المدرسة في جميع أنحاء روسيا، ومناسبة احتفالية تدعى يوم المعرفة، وفيه ينضم الآباء والأجداد إلى أبنائهم لدى تجمعهم في مدارسهم، والجميع يرتدون أفضل ملابسهم، ويحملون الورد أو غيرها من الهدايا للمعلمين الجدد. وفي الأيام الأخيرة من صيف عام 2004م، انتشرت الاحتفالات مرة أخرى في مختلف أنحاء البلاد، وكذلك في المدرسة رقم 1 في بيسلان، وهي مدينة صغيرة في أوسيتيا الشمالية، وهي منطقة يغلب فيها الأرثوذكس في وسط القفقاز، وكان أكثر من ألف ومئتي شخص قد تجمعوا في ساحة المدرسة في التاسعة صباحًا عندما ظهرت شاحنة عسكرية، وقفز رجال يرتدون الزي الرسمي من تحت قماش القنب الذي يغطي البضائع، فأطلقوا النيران من رشاشاتهم في الهواء وصرخوا: «الله أكبر»، ثم حاصروا الجميع أول الأمر في باحة المدرسة، ومن ثم اقتادوهم إلى صالة للألعاب الرياضية في المدرسة، وعلقوا بالأسلاك القنابل فوق رهائنهم[28]. من بين المموهين امرأتان، الزميلتان المتشاركتان في غرفة في جروزني، اللتان يعتقد أن لهما دورًا في هجمات سابقة على الطائرات والمترو في موسكو: مريم تابوروفا وروزا ناغايفا. كانتا الآن جزءًا من هجوم إرهابي همجي مثل حصار نورد-أوست قبل ما يقرب من عامين.

كانت إستراتيجية الكرملين في الشيشان تتعرض لانتكاسة تلو أخرى، وفي 9 مايو/أيار 2004م، بعد يومين من تنصيب بوتين الثاني، انفجرت قنبلة زرعت سرًّا إلى عمود في ملعب لكرة القدم بني حديثًا في جروزني، وذلك في أثناء تجمع النخبة السياسية في الجمهورية، في موكب يوم النصر، في الذكرى السنوية التاسعة والخمسين لهزيمة النازية. الانفجار أسفر عن مقتل ثلاثة عشر شخصًا، من بينهم الرئيس المعين حديثًا، أحمد قاديروف[29]. وقاديروف، بلغ من العمر اثنين وخمسين عامًا، وحارب الروس في الحرب الأولى في الشيشان، لكنه انشق عن رئيس الجمهورية، أصلان مسخادوف، خلال مدة وجيزة من شبه الاستقلال، وعارض الصورة المتطرفة من الإسلام التي كانت تترسخ. وبصفته مفتيَ نفسه وقائدًا محترمًا فقد أمر باحترام تنفيذ خطة بوتين لإعادة توحيد الشيشان مع الوطن الأم، والآن وقد مات، في المجتمع العشائري الشيشاني، كان خليفته واضحًا؛ وهو ابنه الوحيد رمضان، وهو المقاتل المجرم الذي كان قد خدم سائقًا لوالده ومن ثم قائدًا للأمن، وكان المسؤول عن مجموعة من المقاتلين الذين أصبحوا سيئي السمعة؛ لأساليبهم الوحشية ضد الميليشيات المشتبه فيها.

عندما استدعى بوتين رمضان للكرملين يوم اغتيال والده، وصل أشعث الشعر ويرتدي بنطالًا رياضيًّا، وكان عمره سبعة وعشرين عامًا فقط، أي أقل عمرًا- وفقًا لدستور الشيشان الجديد- من أن يصبح رئيسًا، ولكن بوتين ارتقى به إلى منصب نائب رئيس الوزراء، ووضع الأساس له لخلافة والده عندما بلغ الثلاثين. تعهد المتمردون بقتله أيضًا، وتوعدوه على موقعهم على الإنترنت: «ليس من الضرورة أن تكون نوستراداموس لتخمين مصير رمضان قاديروف».

بعد يومين من الهجوم الذي وقع في مايو/أيار طار بوتين سرًّا إلى الشيشان لحضور جنازة قاديروف، وأوهامه هو نفسه عن التقدم الذي أُحرِز أصبحت واضحة. طار بالمروحية فوق أنقاض جروزني، ورأى بأم عينيه الأدلة المادية على الدمار الذي لم يكن في الحسابات

الرسمية للحرب. وعندما عاد إلى موسكو، واجتمع بوزرائه أعلن أنه لم يجر العمل بما يكفي لإعادة بناء الجمهورية المدمرة، وذلك كان واضحًا لأي شخص كان يعيش في جروزني؛ «على الرغم من كل ما ينجَز هناك، يبدو رهيبًا من طائرة حوامة»[30].

بدا متعجبًا؛ وفي بيسلان كانت السلطات المحلية مصعوقة، وذكر قادة الشرطة في البداية صعوبة الوصول إلى الإرهابيين داخل المدرسة، على الرغم من أن واحدًا منهم أجاب على الهاتف في المدرسة وقال لنيكولاي خاليب، من صحيفة نيويورك تايمز، إن المقاتلين هم وحدة تحت قيادة شامل باساييف، المطلوب الأول في روسيا، «امسح مخاط مناخيرك»، قال لخاليب[31]. بعد حين ظهرت امرأة مرعبة من المدرسة مع مذكرة تطالب بمفاوضات مع قادة أوسيتيا الشمالية وأنغوشيا المجاورة، والطبيب الذي توسط خلال حصار نورد-أوست، ليونيد روشال. حذرت المذكرة أيضًا من أن الخاطفين سيطلقون النار على خمسين من الرهائن إذا قُتل واحدٌ من أي من مقاتليها. وفي المساء رُحِّل الرجال إلى الفصول الدراسية في الطابق الثاني، وبدأت عملية تنفيذ قتلهم واحدًا تلو الآخر، والقذف بأجسادهم من النافذة.

في صباح يوم بدء الحصار، استيقظ بوتين ومارس السباحة في البحر، إلا أن الأزمة التي تتكشف جعلت البقاء في سوتشي مستحيلًا، فطار إلى موسكو، حيث وصفه أحد كبار مساعديه الذي التقى به بأنه كان في «اضطراب شديد»، متذمرًا من الانهيار التام في الأمن الذي سمح لمجموعة من المقاتلين المدججين بالسلاح بالاستيلاء على مدرسة بكاملها[32]. بقي بوتين في الكرملين خلال الأيام التالية، ولجأ دوريًّا إلى مصلى في مكتب كان معروفًا جيدًا للصلاة، ليصلي، ولكنه أيضًا كان يشكو من أنه لم يكن لديه الوقت لممارسة رياضته اليومية الروتينية[33]، وظهر علانية على الجمهور بإيجاز، في 2 سبتمبر/أيلول، خلال حديث له مع الملك عبد الله الثاني ملك الأردن، وتعهد خلالها بحماية حياة الرهائن قبل كل شيء. تحدث كما لو كان قد أصدر أوامره لـ FSB بإيفاد مجموعة من عشرة أشخاص (لأغراض خاصة) لبيسلان، التي تضم ضباطًا من النخبة المدربة للأزمات غير العادية[34].

سعى بوتين إلى إيصال الشعور بأن السلطة هادئة، ولكن بحكم الإعادة فقد اضطر المسؤولون الروس إلى الكذب فيما يتعلق بالمأساة، وذلك فاقم الشعور بالذعر والفوضى. ذكرت السلطات في بيسلان وفي موسكو أنه لم يكن هناك سوى 354 رهينة، مع أن الجميع في البلدة يعرفون أنه كان هناك أكثر من ذلك. وقد لجأ بعض من هم خارج المدرسة بغضب إلى حمل لافتات في ضوء كاميرات التلفاز قائلين إن هناك ما لا يقل عن 800 رهينة، وتوسلوا إلى بوتين للتدخل سلميًّا، علمًا أنهم يعرفون أن ردة فعله لن تكون كذلك غريزيًّا مع إعادة انتخابه[35]. حتى الإرهابيون في الداخل استشاطوا غضبًا عندما شاهدوا التلفاز يردد الكذبة عن عدد الرهائن، وهددوا بإطلاق النار على الرهائن حتى يتبقى منهم 354 فقط. وأرَّق بعضَ المسؤولين ذلك الكذب الذي اضطروا إلى تكراره[36].

بدت السلطات كلها- الشرطة، ووزارة الداخلية، وجهاز الأمن الفيدرالي، وكل المدعومين من بوتين خلال ولايته الأولى- مشلولة؛ فهم قلقون كثيرًا على حماية النظام الذي أوجده بوتين بقدر قلقهم على حماية الأطفال والآباء المحاصرين داخل المدرسة.

تمكنت آنا بوليتكوفسكايا، التي تفاوضت مع الإرهابيين في نورد-أوست، من الوصول إلى زعماء المعارضة الشيشانية في المنفى للتوسط مرة أخرى، ولكن عندما وصلت إلى مطار قرب بيسلان بما يكفي لقطع المسافة بالسيارة، قالت إنها مرضت في أثناء رحلة الطيران، وكانت مقتنعة بأن الشاي الذي أعطي لها كان مسمومًا. كذلك اعتقل أندريه بابتسكي، المراسل الذي أثار القبض عليه خلال السنوات الأولى من الحرب فضيحة مدوية، في مطار موسكو[37]؛ ذلك أن السلطات التي أخفقت إخفاقًا ذريعًا بحماية المدرسة في بيسلان قررت حماية المدينة من الصحفيين غير المرغوب فيهم، وبدا أن المسؤولين في بيسلان غير واثقين، ومترددون، والحصار يدخل يومه الثاني.

تفاقم التوتر بسبب الانفجارات المتقطعة وإطلاق النار التي لم يكن سببها واضحًا لمن هم في الخارج، وكان بوتين قد جعل من نفسه السلطة العليا في روسيا، إلا أن (السلطة

الرأسية) خلقت شللًا في أوقات الأزمات؛ فلا أحد يخاطر بأخذ مبادرة قد تثير الاستنكار[38]. وتعهد بوتين بعدم التفاوض مع الإرهابيين، ولكنه لأول مرة يسمح لمساعديه ببحث إمكانية التوصل إلى نهاية للحصار، حتى مع إبقاء الكرملين له بعيدًا عن أي جهد[39]. وأصدر تعليماته لحاكم المنطقة، ألكسندر جازوخوف، لإجراء اتصالات مع الممثل الرئيس لأصلان مسخادوف في المنفى، أحمد زكاييف، وقد فعل ذلك من خلال رسلان أوشيف، الرئيس السابق لإنغوشيا المجاورة، وبطل الحرب السوفييتية في أفغانستان، والمتعاطف مع نضال الشيشان من أجل الاستقلال، لكنه أيضًا أراد أن يكون على يقين من الحفاظ على منطقته بمنأى عن القتال.

وصل أوشيف إلى بيسلان في اليوم الثاني من الحصار، وتولى الاتصال مع الإرهابيين، وخلال خمس عشرة دقيقة، قيل له إنه يمكن أن يدخل المدرسة، وكان أول مسؤول يسمح له بالدخول، وما رآه في الداخل كان مدعاة لليأس؛ فالإرهابيون لم يقدموا للرهائن أي طعام أو ماء، وأعطى قائد المجموعة، الذي يطلق على نفسه اسم **العقيد**، أوشيف قائمة مكتوبة بخط اليد من المطالب: أن تنسحب القوات الروسية من الشيشان وتمنحها الاستقلال؛ وأن تنضم الشيشان الجديدة لروسيا في رابطة الدول المستقلة؛ وأن تحافظ على الروبل عملةً لها؛ والعمل مع القوات الروسية لاستعادة النظام في المنطقة. وقد وجهت هذه المذكرة، التي كُتبت على ورقة دفتر ملاحظات، إلى «فخامة رئيس الاتحاد الروسي»، وكتب في ذيلها اسم «**عبد الله، شامل باساييف**». إن أيًّا من المطالب لن يكون مقبولًا لدى بوتين، لكن أوشيف وعد بنقلها إذا أفرج الإرهابيون عن النساء والأطفال الرضع، وأخبره أحد الإرهابيين أن ألفًا وعشرين من الرهائن كانوا داخل المدرسة المكتظة، وقد حاول أوشيف إقناعهم بالسماح لست وعشرين من الرهائن بالمغادرة معه؛ إحدى عشرة امرأة وخمسة عشر من الرضع.

عندما عاد أوشيف إلى مركز القيادة، اتصل بزكاييف في لندن، وأخبره زكاييف أنه ومسخادوف على استعداد للمساعدة، ولكن لا بد من أن يتمكن مسخادوف من السفر إلى بيسلان للتحدث إلى الإرهابيين، بأن تمنح روسيا له ضمانات مرور آمن[40].

عرف أوشيف أن هناك خطة وضعت لمداهمة المدرسة، وفي الواقع فإن اثنتين من الوحدات الخاصة التي أمر بوتين بإرسالها إلى بيسلان كانوا يتدربون حقًّا على الهجوم في مبنى لمدرسة مماثلة ليس بعيدًا[41]، ومن ثم فقد أعرب عن أمله في أن يتمكن من تحقيق الإفراج عن مزيد من الرهائن في غضون ذلك، ولكن في صباح اليوم الثالث، 3 سبتمبر/ أيلول، توصل إلى اتفاق مع الإرهابيين لإزالة جثث الرجال الذين أعدموا وقذف بهم من نافذة الغرفة الصفية، وكانت جثثهم حينها قد بدأت بالتحلل.

بدأ فريق مؤلف من أربعة رجال من وزارة حالات الطوارئ بسحب الجثث إلى سيارة إسعاف في الساعة الواحدة، وما إن بدؤوا بحمل الجثث حتى هز انفجار مدوٍّ صالة الألعاب الرياضية في المدرسة، وبعد اثنتين وعشرين ثانية حدث الانفجار الثاني. قذفت التفجيرات السقف والعوارض الخشبية خارج المدرسة، ثم دوى انفجار آخر قريبًا من النوافذ، أحدث ثقبًا في جدار صالة الألعاب الرياضية، فقُتل العشرات في الاشتباك فورًا، وبدأ الناجون- وهم في حالة ذهول- بالهرب من المدرسة المحطمة، في حين كان الجنود في الخارج والإرهابيون في الداخل، على حد سواء، غير متأكدين مما حدث، وبدؤوا بتبادل إطلاق نار شرس استمر عشر ساعات. اشتعلت النيران بالسقف المنهار، واشتعلت العوارض الخشبية التي سقطت بنيرانها على أولئك الذين ما زالوا في الداخل.

وفق نظرية المؤامرة التي ظهرت في وقت لاحق فإن الروس هم من بدؤوا المعركة قبل العصابة في المدرسة، ولكن أيًّا من أولئك الذين في الخارج ما كان يبدو مستعدًّا لشن هجوم على المبنى عندما بدأ الهجوم، إذ لم يكن لديهم كثير من السترات الواقية من الرصاص، ولم يقيموا سياجًا أمنيًّا حول المبنى، ولم تكن هناك سيارة إسعاف أو شاحنات إطفاء النيران في متناول أيديهم. أما رجال المنطقة ممن كان معهم بنادق صيد فشاركوا في القتال بها، يطلقون النار جزافًا، ويهرعون وسط المعركة لحمل الأطفال إلى بر الأمان[42].

كان ذلك الهرج والمرج يبثُّ حيًّا على شبكات التلفاز الدولي، ولكن ليس على الشبكات الروسية، التي توقفت عند برامجها العادية فقط بانتظار الحصول على التحديثات القصيرة التي استمرت تقلل من شأن المذبحة كلما ازدادت سوءًا. لم يظهر بوتين ولا أي من كبار المسؤولين الآخرين لمعالجة الأزمة. وفي تلك الأثناء اجتمع رئيس الوزراء فرادكوف والحكومة لمناقشة خطط الخصخصة في البلاد، والرشقات النارية من البنادق والرشاشات والانفجارات تمزق المدرسة.

وصلت المعركة إلى الذروة في تلك الليلة في الساعة 11:15 صباحًا، عندما أطلقت دبابة روسية قذيفة على المدرسة، وهو ما أسفر عن مقتل ثلاثة مسلحين كانوا في الطابق السفلي، وكانت شبكات التلفاز الروسية أعلنت أن الوضع تحت السيطرة قبل ساعات. عند انتهاء المعركة كان الـ 334 من الرهائن قد لقوا حتفهم، 186 منهم من الأطفال، وقُتل عشرة من القوات الخاصة الروسية وهم يحاولون تحرير من في الداخل، وقُتل ثلاثون من الإرهابيين، بينهم اثنتان من النساء؛ مريم تابوروفا وروزا ناغايفا، التي كانت زميلتها قد شاركت في عملية إرهابية من خلال تدمير طائرتين، وقُبض على إرهابي واحد أُحيل في وقت لاحق إلى المحكمة، ولكن يعتقد أن آخرين هربوا في حالة من الفوضى.

ولأن عدد القتلى يعادل تقريبًا عدد الرهائن الذي تكرر على مدى أكثر من يومين على التلفاز الرسمي، لم يعد ممكنًا أن تبقى الكذبة في الخفاء، ومن ثم فإن عدم ثقة الجمهور بالتصريحات الرسمية دفعت كثيرين إلى الاعتقاد بأن الحكومة واصلت الكذب بشأن عدد القتلى ومصير الإرهابيين، وسبب الانفجارين اللذين أوصلا الحصار إلى نهايته البشعة.

غادر بوتين الكرملين في وقت مبكر من صباح يوم 4 سبتمبر/أيلول وتوجه إلى بيسلان، فوصل قبل الفجر، وزار الجرحى في المستشفى قبل إصدار بيان مقتضب مع رئيس الإقليم، ألكسندر جازوخوف، واقتصر على أن قال: «اليوم كل روسيا تعاني من أجلكم»[43]، ولم ينبس بأي كلمات أخرى من شأنها أن تجلب الطمأنينة غير وعده بملاحقة المسؤولين عن الحصار.

لم يكن هناك لجلب الاطمئنان، بل لخلق صورة عن الاطمئنان، ولم يعقد أي اجتماع- ولا حتى واحدًا مكتوبًا سابقًا أمام الكاميرات- مع شعب بيسلان. المكروبون، الناقمون، الساخطون، من حشود الصدمة التي أبقتهم واقفين احتجاجًا خارج المدرسة، طالبوا بعد ذلك أن تفعل الحكومة شيئًا، وأن تتوقف عن الكذب. بعدها عاد بوتين إلى موسكو، وألقى خطابًا متلفزًا إلى الأمة، وعندما ظهر في غرف المعيشة في بيوت الأمة في تلك الليلة، بدا مهزوزًا على نحو غير معهود، كان واقفًا وحده أمام جدار خشبي والعلم الروسي؛ مبتدئًا: «إنها مهمة صعبة ومريرة لي أن أتكلم. حدثت مأساة مروعة في أرضنا»[44]، وطلب من كل روسيا أن تتذكر أولئك «الذين فقدوا أعز ما في حياتهم»، وحنى رأسه قليلًا، لكنه لم يقدم اعتذارًا ولا تحمَّل أي مسؤولية.

قال إنه لن يستغل هذه الفرصة للدفاع، أو للتسويغ، أو لتفسير سياساته في الشيشان، كما أنه لم يقدم أي نهج جديد، حتى إنه لم يذكر الشيشان بالاسم، وتلا بدلًا من ذلك مناجاة عن تاريخ البلاد، مع الحنين العميق لهذا الغرض والأمن الموحد للاتحاد السوفييتي، الذي كان قد مضى عليه ثلاثة عشر عامًا، واقترح فقط- كما كان يفعل كثيرًا من قبل- الحرص على احترام تاريخ الماضي السوفييتي من دون تبني إخفاقاته والجرائم التي وصمته، لكنه الآن يبدو أنه يلقي باللوم على الحصار في بيسلان الذي أظهر عجز روسيا في الحفاظ على القوة التي جعلت الاتحاد السوفييتي- الذي يذكره عندما كان صبيًّا- بوصفه تلك الدولة القوية والمحترمة.

> «لقد كانت هناك عديد من الصفحات المأساوية والتجارب الصعبة في تاريخ روسيا»، واصل كما لو كان أستاذًا جامعيًّا يلقي محاضرته بهدوء: «إننا نعيش اليوم في ظل أوضاع تكوَّنت بعد تفكك بلد ضخم عظيم، هذا البلد الذي تحول- للأسف- ليكون في أجواء عالم سريع التغير. اليوم، وعلى الرغم من كل الصعوبات، تمكنَّا من الحفاظ على نواة ذلك العملاق الاتحاد السوفييتي، والذي نسميه بصفته بلدًا جديدًا بالاتحاد الروسي. نحن جميعًا توقعنا التغيرات، والتغيرات نحو الأفضل، ولكن وجدنا أنفسنا غير مستعدين تمامًا لمعظم ذلك التغير في حياتنا. والسؤال هو: لماذا؟ نحن نعيش في وضع الاقتصاد الانتقالي والنظام السياسي الذي لا يتوافق مع تطور المجتمع. نحن نعيش في أوضاع تتفاقم بها الصراعات الداخلية والعرقية التي قُمعت بقسوة من قبل الإيديولوجية الحاكمة، وتوقفنا عن إيلاء الأهمية الواجبة لقضايا

الدفاع والأمن، وسمحنا للفساد أن يؤثر في أنظمة القضاء وإنفاذ القانون، وبالإضافة إلى ذلك فإن بلدنا، الذي كان ذات مرة من أعتى الأنظمة في حماية حدوده، وجد نفسه فجأة بلا حماية، سواء من الغرب أو الشرق».

بدت تصريحات بوتين تقريبًا مثل لائحة اتهام للسنوات الأولى من ولايته، والاعتراف بأنه قد أخفق في الوفاء بالوعود التي قدمها مرارًا وتكرارًا، وكشفت الإشارة إلى حدود روسيا (غير المحمية) عن فهم ضيق الأفق للتهديد الذي لا يزال منبثقًا من الشيشان. ولطالما كان يحاول منذ مدة طويلة ربط الحرب بصعود تنظيم القاعدة على مستوى العالم، ولكن على الرغم من الأيديولوجية المشتركة مع الإسلام، فإن الإرهاب الذي واجهته روسيا وصلت جذوره إلى الفتح القيصري في منطقة القفقاز في القرن التاسع عشر، ولكنه يعتقد أن أولئك الذين هاجموا المدرسة قد حصلوا على مساعدة من الأمم المصممة على معاقبة روسيا، لإبقائها ضعيفة ومطواعة، وكانت لهجته مروعة ذات نبرة تحدٍّ، وقال إن على البلاد أن تتوحد للحفاظ على وجودها.

«هناك من يريد تمزيقنا كقطعة من فطيرة، وآخرون يساعدونهم على فعل ذلك؛ إنهم يساعدون لأنهم يعتقدون أن روسيا، لكونها واحدة من أكبر القوى النووية في العالم، لا تزال تمثل تهديدًا، وأن هذا التهديد لا بد من القضاء عليه، والإرهاب ما هو إلا أداة لتحقيق هذه الأهداف». وتحدث بوتين كما لو كان مطلعًا على الغيب. ولكن الحرب على الإرهاب كانت متركزة في مكان واحد، وزعماء العالم متفقون جميعًا في هذه الناحية. وعلى الرغم من الانتقادات في بعض الأحيان لوحشية العمليات الروسية في الشيشان، فإنه لم يعرب ولا أي زعيم عن التعاطف مع العمليات الإرهابية لباساييف وأتباعه. وكانت الحكومة الوحيدة التي اعترفت بإعلان الشيشان الاستقلال بعد الحرب الأولى هي طالبان في أفغانستان، التي ساعدت الولاياتُ المتحدة، وبمباركة روسيا ومساعدتها، على الإطاحة بها بعد هجمات 11 سبتمبر/أيلول 2001م، وها هو ذا بوتين الآن يلقي باللوم على أعداء في علم الغيب بأنهم هم من حرضوا على واحد من أبشع الأعمال الإرهابية في التاريخ. ولكن البلاد ازداد تراخيها وكسلها في مواجهة هذا التهديد الخارجي، ومن ثم فقد تعهد باتخاذ كل التدابير الممكنة لتعزيز الدولة؛ وقال: «لقد أثبتنا ضعفنا، والضعفاء يتعرضون للضرب».

كانت الإصلاحات التي وعد بوتين بها في خطابه الوطني بعد مأساة بيسلان لم تأت متأخرة فلم يتطرق إلى الاستخبارات التي أخفقت في توقع الهجوم على مدرسة، أو إلى قادة الجيش أو الشرطة الذين لم يتقنوا المفاوضات والإنقاذ في نهاية المطاف، ولكنه- بدلًا من ذلك- أعلن تشديد سيطرة الكرملين السياسية عن طريق زيادة تفكيك بقايا الحكم الديموقراطي؛ وفي يوم 13 سبتمبر/أيلول، بعد عشرة أيام من النهاية المروعة للحصار، ألغى بوتين انتخابات المحافظين ورؤساء البلديات، ورؤساء عديد من المناطق في روسيا والجمهوريات، الذين حافظوا منذ انهيار الاتحاد السوفييتي على دوائرهم الخاصة، وقواعد السلطة خارج سيطرة موسكو مباشرة، بحيث صار الآن يعينهم ويقدم مرشحيه إلى البرلمانات الإقليمية للتصديق، وإذا رفضوا مرشحيه، فإنه يمكنه بعد ذلك حلهم. وألغى أيضًا انتخابات ممثلي المناطق للبرلمان، التي تمثل نصف الـ 450 مقعدًا في الدوما.

مع ازدياد التقييدات على أحزاب المعارضة، وفرت هذه الانتخابات فرصة للأعضاء المستقلين والليبراليين الوحيدين الذين بقوا في السلطة بعد انتخابات عام 2003م، ولكن هذه المقترحات كانت صدمة لأولئك الذين باتوا يرون فيها تعزيزًا لنزعة بوتين الاستبدادية، ومع ذلك فقد جعلت البلاد في حالة استقرار إن لم نقل توقف التقدم نحو الديموقراطية. صحيفة إزفستيا اسمتها **ثورة سبتمبر**، في حين ندد نقاد بوتين بالتحركات بصفتها غير دستورية، على الرغم من خلوها من أي قيمة لعدم جدوى أي طعن قانوني. وجاء الانتقاد الأبرز من بوريس يلتسين؛ ففي مقابلة مع موسكوفيسكي نوفوستي، أشار إلى وعده بالبقاء خارج المناقشات السياسية في البلاد في التقاعد، لكنه قال إن بيسلان كانت حدًّا فاصلًا، قدم روسيا «بلدًا مختلفًا، نحن لن نسمح لأنفسنا بالتخلي عن الرسالة، والأهم من ذلك روح الدستور الذي اعتمدته الدولة في استفتاء وطني في عام 1993م، إلا إذا كان خنق الحريات، والحد من علامات الحقوق الديموقراطية، من بين أمور أخرى، سيكون سببًا في انتصار الإرهابيين»[45].

سرًّا يئس يلتسين من زعيم كان قد ارتقى به إلى السلطة، وهو يرى تحركاته ضد وسائل الإعلام، وضد أحزاب المعارضة، والآن ضد الحكام لكونهم يهددون مطامحه الخاصة[46]. كانت المقابلة هي المرة الوحيدة التي أعرب فيها يلتسين عن مخاوفه بصورة حادة جدًّا أمام الملأ؛ إذ كانت سلطته المعنوية والسياسية ضئيلة في روسيا بوتين، وكان الوقت قد مر، وولي عهده يعيد البلاد إلى مسار جديد. وفي الواقع بات عهد يلتسين- الذي كان عهدًا مضطربًا خلال فوضى التسعينيات- التسويغ المتكرر لبوتين في قراراته. وخطوة فخطوة مسح بوتين تركة سلفه، تمامًا كما فعل ستالين مع لينين، وخروتشوف مع ستالين، وبريجنيف مع خروتشوف، وكما فعل يلتسين مع جورباتشوف.

حتى أولئك الأكثر تضررًا من قرار بوتين الجديد- من المحافظين ورؤساء البلديات الذين استمدوا شرعيتهم الانتخابية وسلطتهم من صناديق الاقتراع، لكن بالتواطؤ- أعلنوا واحدًا تلو الآخر الثناء على اقتراح بوتين. وقد كانت المقترحات المطروحة نوقشت في إدارته من قبل، ولكنه استخدم مأساة بيسلان ذريعةً لتنفيذها.

كانت الإرادة الشعبية- بنظر بوتين- الطريق إلى الفوضى، فلا يمكن أن يثق بقدرة الناس على اختيار قادتهم، إلا في عملية يسيطر عليها بعناية، وقد تحدث عن هذا قائلًا: «إن الشعب الروسي متخلف»، قالها في وقت لاحق وهو يتحدث لمجموعة من الصحفيين الأجانب والأكاديميين الذين دُعوا إلى منتجع سيصبح له شأن، ويعرف باسم **نادي فالداي** فيما بعد، على اسم المنتجع الذي أقيم فيه أول مرة، وأضاف: «لا يمكنهم أن يتكيفوا مع الديموقراطية كما فعلوا في بلادكم، إنهم بحاجة إلى وقت»[47]. عكست هذه التصريحات تعاليًا مشوبًا بازدراء، ولكن قلة في روسيا تكلمت متحدية سلطة أخذها الآن على عاتقه.

وفي غضون أسابيع، سنَّ مجلس الدوما ومجلس الاتحاد كل مقترحاته قوانين، وسُلِّم عن طيب خاطر مزيدًا من صلاحيات الكرملين، و«الشيء الوحيد الذي بقي هو السجود المطلق»، وفق ما قال ليونيد دوبروخوتوف، مستشار الشيوعيين، ردًّا على ذلك[48]، وكان معظم النخبة الروسية- إما من الولاء أو من الخوف- سعداء بإلزامهم.